

ما منهجية التاريخ الإسلامي؟

بقلم أ/ رأس مال عبدالعزيز

تمهيد

يقول الجبرتي : "اعلم أن التاريخ علم يبحث فيه عن معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائعهم وأنسابهم ووفياتهم، وموضوعه أحوال الأشخاص الماضية من الأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء والشعراء والملوك والسلطين وغيرهم والغرض منه الوقوف على الأحوال الماضية من حيث هي وكيف كانت، وفائدة العبرة بتلك الأحوال والعادات، وهو يدرج هاته العناصر على امتداد خط موجه من البدايات (الأنساب) إلى النهايات (الوفيات)، وهو يحدد الحادثة التاريخية، وكيفية حدوثها، وكذلك المقارنة بين الماضي والحاضر في كون التاريخ الإسلامي ليس إلا معيدا لنفسه ولكن بصور مختلفة من حيث العبرة والدلالة والرمز.

1- التاريخ في التصنيفات الإسلامية للعلوم :

التاريخ هو التصنيفات إما غائبا، ذلك اقتداء بالقسم الأرسطي واليوناني، وإما ثانويا كمساعد للعلوم الدينية، وقد قسم المسلمون العلوم إلى علوم أجنبية وعلوم أصلية :

فأما العلوم الأجنبية، فتصنف من ضمنها الفلسفة.. وأما العلوم الأصلية فهي العلم الإسلامي الحق، وهي ما يسميها ابن خلدون : العلوم النقية.

إخوان الصفا أثبتوا علم التاريخ بين العلوم الرياضية (التاريخ Dates، ربط تاريخ البشر بعالم السماء والأفلاك وقراءتها)، وفي العلوم الشرعية سموه تارة "علم السير والأخبار"، واثبتوا هذا العلم بين العلوم العربية الإسلامية .

والأمر نفسه بالنسبة لمحمد بن عبد الله من خوارزم، الرياضي المشهور الذي ألف في 976م "مفاتيح العلوم" الذي أدخل علم التاريخ في العلوم الشرعية، وفهرست ابن النديم الذي وضع 10 مقالات في العلوم الأصلية، الثالثة منها مختصة بعلم التاريخ (الأخبار والسير).

أما في رسالة ابن حزم، فيقول عن التاريخ بأنه علم نافع، وأن أصبح التواريخ عندنا تاريخ الأمة الإسلامية؛ وحتى تاريخ اليهود يقال أن أغلبه صادق، ولو أن في بعضه "دخل"؛ وتاريخ الروم (اليونان والرومان) لا يصدق إلا ابتداء من الإسكندر؛ أما تاريخ الهند والصينيين فعلى الرغم من أنهم عرفوا علما مزدهراً فإن كتبهم "لم تبلغنا"، فهو تاريخ غير معروف، كما هو الشأن فيما يتعلق بتاريخ القبط-قدماء المصريين-واليمنيين والسريان. أما شعوب الترك وأمم الشمال والزنوج فلا تواريخ لديهم لأنه لا كتابة لديهم ولا علم، وهذا التقسيم شائع ومنتظر عند العلماء المسلمين بين الأمم المتحضرة وغير المتحضرة.. فالتاريخ الإسلامي إذن هو أصدق التواريخ عند هذا العالم القرطبي، وهو موقف مفهوم إذا قيس بمدى توفر الوثائق.

أما أبو حامد الغزالي، فيرى أن هنالك علوما مباحة كالتاريخ، ويسميه "تواريخ الأخبار" -علم غير شرعي-؛ وعلم بسيرة النبي وأخبار أصحابه ويسميه علم الأخبار والآثار -علم شرعي-.

2- ابن خلدون ومنهجية التاريخ :

يعبر عنه بأنه "أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها خليق"، فهو يخرج من العلوم الشرعية ليدخله في العلوم الفلسفية "الحكمية"، ودعنا إلى دراسة التاريخ بمنهج عقلائي من خلال نقد منهج الإسناد (تمحيص الخبر من خلال طبيعة إسناد، مقارنة صدق الخبر بطبائع العمران المتواجدة في عصره)، ومن ثم فإن نقد الإسناد هو في حد ذاته نقد التقليد الذي وقع فيه الطبري والمسعودي، فنسبت أصول الأخبار، ولم تعد هنالك حاجة إلى معاودة البحث عنها.

لكن تناقل الخطأ يشتد تفاقماً حين يقع التاريخ -تبعاً لثقافة برمتها- في التقليد؛ أي أنماط يحللها إلى مختصرات وملخصات، أي نموذج للتعليم الديني الذي يهيمن على نماذج الثقافة الواقعة في التقليد. لكن نقد التاريخ عند ابن خلدون كان بلغة أصولية -وهو الذي أراد لنقده أن يكون جذرياً.

يقول ابن خلدون : "ومن هذا الباب ما يسلكه المؤرخون عند ذكر الدول ونسب ملوكها، فيذكرون اسمه ونسبه وأباه وأمه ونسائه ولقبه وخاتمته وقاضيه وحاجبه ووزيره، كل ذلك تقليداً للمؤرخي الدولتين من غير تفتن لمقاصدهم، والمؤرخون لذلك العهد كانوا يضعون تواريخهم لأهل الدولة، وأبناءؤها متشوقون إلى سير أسلافهم ومعرفة أحوالهم ليقتنوا آثارهم..." (المقدمة ص 31-32).

وهنا يسلك ابن خلدون كما يقول أو مليل مسلماً مختلفاً عن علماء التاريخ الآخرين، فهو لا يكتب لأهل السلطة من خلال الحوادث الفردية ولا يكتب للمجتمع المخملي، بل ما يهمه هو سير الأسلاف، ومعرفة أحوالهم -أي أوضاعهم الحياتية-، أي ينبغي إرجاع التاريخ إلى وقائع التاريخ، أما اللجوء إلى مصطلحات

العلم الديني -الأصول-، فهي من أجل إحداث فصل منهجي: وهو إرجاع التاريخ إلى موقعه الحقيقي (قوانين التاريخ)، بإختصار إلغاء الانفصام بين التاريخ والخطاب التاريخي.

حكم ابن خلدون على عصره، كان من خلال عبارات قوية وموحية :
"وأما لهذا العهد، وهو آخر المائة الثامنة، فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه، وتبدلت بالجملة.. وما نزل من الطاعون الجارف الذي تخيف الأمم، وذهب بأهل الجبل، وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحامها، وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر"، لذلك فهو يشير إلى تبدل كوني كبير من الناحية السكانية ومن الناحية العمرانية، وهذا لم يعره كتاب الملوك أهميته الخاصة.

من الناحية المنهجية فإن ما خلا تاريخ العرب والبربر، جمعه من مكاتب القاهرة ومكة ودمشق، وكذا الاتصال بالتجار والموظفين ورجال الدولة، وهذا الجمع للمعطيات ساعده بأن يكتب عن تاريخ المشرف، ويكمل ما كان ناقصا.
من ناحية أخرى - كما يقول أو مليل - فإن دراسة تطور المشروع التاريخي لابن خلدون، نشأته ونموه، ينبغي أن تسبق كل حديث عن فلسفته التاريخية.
منهجيا ينبغي أن نقرأ المقدمة من خلال كتاب التاريخ، أي من خلال العبر؛ فكتاب العبر يعرض التاريخ، كما يعرفه "ابن خلدون"، والذي ينبغي تحديد حقله.
المقدمة ليست في نهاية الأمر سوى تنظير لتاريخ ما، تنظير ينبغي أن يستخرج من قراءة منهجية لكتاب "العبر".

ويعالج التواريخ الأخرى بشرطين اثنين :-

أولهما : أن كل تاريخ خاص لابد له أن يتموضع بالنسبة للتاريخ الكوني، وهي أن التاريخ هو ذكر للأخبار الخاصة بكل عصر أو جيل، وما ذكر الأحوال العامة

للآفاق والأجيال والأعصار، فهو أس للمؤرخ تنبني عليه أكثر مقاصده" (المقدمة ص32).

ثانيهما: أما التواريخ المعاصرة لتاريخ العرب والبربر (لفظ معاصرة نجدها في ص6)، فهي تواريخ الفرس وبني إسرائيل والمسيحيين، وذلك في الجيل الثاني للعرب وهو العرب المستعربة. أما جيل الترك فقد عاجله باتصال مع تاريخ الرابع، أي العرب دعاة الإسلام ومؤسسي امراطوريته.

ومن هنا فإن النظرية الخلدونية تعتمد على "محمر العصبية"، فتاريخه هو تاريخ الشعوب ذات البنية القبلية، أي الشعوب التي تعتمد على العصبية في تغييرها من حال إلى حال..

يرجع ايضا للكتب الدينية (التوراة)، للتعرف على بدء الخليقة، كما أن الطوفان ليس كونيا حيث تجهله بعض الأمم مثل الهنود والفرس، كما يعتمد على الوصف الجغرافي للمناطق.

3-اهتمام المؤرخ في التاريخ الإسلامي :-

المؤرخ المسلم محكوم عليه بأن يدمج بين الالتزام والتجرد العلمي، فالخيط الذي يفصل بينهما خيط رفيع لا يظهر إلا إذا تحول الالتزام إلى تعصب أعمى وتحول التجرد إلى فكر مجرد خام.

لابد أن نشير إلى أن الغرور الذي أصاب الفكر التاريخي (تبجيل الذات والترحسية التاريخية)، هو الذي كان وراء انحدار هذا الفكر وفقدانه لمصداقياته حينما تعلق الأمر بالمنظرات الحضارية. هنالك مدرستان في التفكير :

*مدرسة نطلق عليها الانتقائية، يتم استعراض الفكر تارة بدقة وشمول، وتارة بسطحية ساذجة، فهي كالذي يتسوق في سوق الأفكار، فيستسيغ الفكرة من هنا وهناك، ويدلل عليها على أنها إبداع فكري وانتصار حضاري، وغالباً ما نجد هذا مفتاحاً لنفسية المؤرخ أكثر من كونها فهماً لفكر هذا الأخير.

*مدرسة ثانية يتم فيها قسر الروايات التاريخية والأحداث والسير للمنهجية الدينية (من حيث الإسناد والتواتر) مثل القرآن الكريم والحديث الشريف، وهو خطأ منهجي ما زالت لحد الآن تتركبه النخبة من مؤرخين وغيرهم.. وكأن المجتمع اليوم في عصوره الذهبية، وهو في الحقيقة يبحث عن مخرج من أزمة خانقة على كل المستويات.

يبين لنا طريف الخالدي إلى أننا بحاجة إلى الهداية، وأن نبتعد عن الصورة التاريخية، ونلتفت إلى ما نجده في التاريخ من الدروس والعبر، فأوجه الفكر الحيوية كانت بالمناظرة بين العلماء المسلمين وغير المسلمين، وبين المسلمين أنفسهم، ونرى أن إعادة النظر في التفكير الديني لم يكن مختصاً بحضارتنا وإنما عرفته الحضارات الأخرى.

إن فهم القرآن من خلال الأحداث التاريخية والأديان المقارنة، هو الذي يسمح لنا بتملك أدوات البحث، والتعمق في المفاهيم، وليس العكس أي فهم الأحداث التاريخية من خلال القرآن.

الأمر نفسه، يتعلق بالهالة التي نحيط بها مؤرخينا مثل ابن خلدون وابن الأثير والمقرئزي وصاعد الأندلسي وغيرهم... ينبغي فهم أفكارهم وروياتهم من الداخل، أي فهمها في إطار التفاعل بين البيئة التاريخية والفكر، وهو ما يهمنا في الحاضر.

يقول "رانكة" كل جيل من الأجيال يتساوى مع الجيل الآخر في مسافته الروحية من الله؛ وهذه عبرة من عبر تاريخ الفكر الإسلامي، إذ تتابعت في صدر الإسلام أجيال من العلماء حاول كل جيل إعادة تقييم التراث بكامله، فكان أن نتج عن ذلك زخم فكري حضاري هام.

المؤرخ عندنا يستلهم التاريخ لا لاستشراف المستقبل، بل للترويح عن النفس في بهاء الماضي وعظمته، وهذا ما تقوم به للأسف الشديد، لتعويض العجز والقصور الفكري.

المشكلة الثانية التي يعاني منها التأريخ الإسلامي هو أنه تاريخ نخبوي، وبقدر ما يؤرخ لطبقة صغيرة من العلماء التي تنحو منحى ضيقا، بقدر ما يقصي حقائق حضارية عامة كانت هي بذاتها بذور فناء الثقافة الإسلامية التاريخية، والنحطاط الفكر الإبداعي.

4-الناهج المتبعة عند العلماء المسلمين :

إن منهجية التجريح والتعديل، تعتبر هي المهيمنة في مناهج البحث، مارسها المؤلفون، وما أن العديد منهم كان من أهل الحديث، فقد استعملوها.. فالذهبي، وضع ميزان الاعتدال الذي يجمع فيه كل أصناف رجال السند من الثقل إلى الكذبة، فالبيهقي تقع على الجرح، وهذا يقيد من لا يوجد بحقهم جرح، وقد أخذ بن حجر العسقلاني بهذا الرأي. أما السخاوي، فيشير إلى نواقص الرجال هي ضرب من الغيبة المذمومة، وهو بذلك يختلف عن الذهبي والعسقلاني المفضلين للتعديل على الجرح.

البورييني، لا يذكر إلا ما كان محموداً عند كل إنسان، ابتغاء الثواب خوفاً من يوم الحساب.

الغزي، حذف كل ما من شأنه الإساءة إلى البشر، ينسبها إلى نفسه بدل الراوي. السبكي، طور منهج النقد هذا، وأخذ في البحث عن الخصائص التي ينبغي أن يتحلى بها المؤرخ، والمؤرخ ينبغي أن يكون صادقاً وفيّاً في ذكر مصادره، يعرف صاحب الترجمة إن أمكن، بليفاً، قادراً على استعادة سيرة المترجم في ذهنه وقلها في صورة بعيدة عن الأهواء الشخصية..

هذه الآراء لم تلق الصدى، كما أشرنا، لمن تبعهم من المؤلفين الذين عادوا إلى أساليب المحاكاة غير المحبة بين مناهج التاريخ والسير ومناهج الحديث. الخلاصة : -الذهبي وابن حجر اتبعا أسلوباً وسطاً والسخاوي والسيوطي تميزا بالجرح، والبورييني والغزي قدما التعديل وحذفا الجرح...

من هنا يبدوا أن النزعة في الأول كانت نحو الانتقاء والتمييز عند بن خلكان، ثم توسعت إلى الشمولية بفضل الذهبي والصفدي مؤرخ عصر الماليك، ثم نزعة الانتقاء في العهد العثماني حيث أصبحت طبقة العلماء مميزة وذات دور سياسي.

أشار حمزة الإصفهان على لسان أبي معشر البلخي إلى "الفساد" الذي يعتري التواريخ في نقلها من كتاب إلى كتاب، ومن لسان إلى لسان، (افتراءات المؤرخين اليهود في السنين التي بين آدم ونوح؛ وعن الأنبياء والأمم، والمؤرخين الفرس عن أصل ملكهم من أول الدهر إلى زواله).

اضطراب البيروني في الاختلافات التي وجدها في المصادر التي اعتمدها للثبوت بالمعارف التاريخية : أما اصحاب التواريخ، فكانوا حريصين على ذكر

المصادر، فالسبكي الاب كان يحرص على أن يذكر المؤرخون المصادر في كل خبر تاريخي.

خطط المقرئزي (توفي 1442 هجرية) لها مصادر ثلاثة : - *المصنفات الأدبية* المعلومات التي جمعها من العلماء المعاصرين له * المعلومات المبنية على اختبار الشخصيات ومشاهداته.

4- أين نحن من المعرفة التاريخية؟

لم يؤد للأسف، فإن علم المناهج الحالي لم يؤد إلا إلى عزل التاريخ عن العلم الموسوعي، فلاتوجد حقيقة واقعة تاريخية.. التاريخ هو نتيجة للجهـد في معنى خلاق، يدعم المؤرخ أو الذات العارفة بين الماضي الذي يستدعيه والحاضر الذي يمتلكه، وذلك بالإلحاح على المؤرخ لإتقان التاريخ؛ ومن ثم يرى "جاليريت": "لأفرض أن التاريخ هو الماضي، إنه أبعد كثيرا مما نعرفه، أو بالأحرى هو بالمقياس الذي نعرف فيه هذا الماضي" ..

التاريخ هو كفاح الفكر، مغامرة مثل كل الغزوات والحروب البشرية، لايعرف إلا انتصارات الجزئية، تتناسب مع الرغبة الرئيسية، كما في أعماق النفس الإنسانية المحيرة، يعود منها بإحساس حاد عن امكانياته، عن ضعفه، عن خضوعه. لاتنس أنك لست إلا إنسانا، هذا ليس اعترافا بالعجز واليأس، بقدر ماهو يعبر على أن عمل المؤرخ شاق يستلزم جهدا ومثابرة، ولكن داخل حدوده خصب بالتأكيد. في موسوعة "لأنجلوا-ستيوبوس" نجد في أول السطر "يجري تحري التاريخ بوثلثق" وفي نهاية الكتاب "لي التاريخ إلا الممارسة بالوثائق" ..

يقال في مثل أوروبي :- "لا تأكل الماعز إلا من عشبها المجاور لها حين تكون مربوطة، إن المجاورة لمخزن البطاقات والمصادر المكتبية، وإيجاد تحفة جديدة بلا تبصر، ولا قصد التنقيب، يمكن أن تبدو كالأصل لأعمال مشاهمة (الحالة كثيرة الحدوث في التاريخ القديم حين تكون الوثائق نادرة، وكل مادة جديدة مرحب بها).

ويرى "آكنون" بأنه ينبغي دراسة المشكلات للعصور، وهو ما ذهب إليه كارل بوهر، فتاريخ الحضارة هو المهيم **Kulturgeschichte**، ومن ثم ينبغي نقد الوثيقة بالطريقة التالية:-

1- نقد خارجي :-

1- نقد الشرعية :- هل هو نص الكاتب؟ الأصل أو نسخة مصورة؟ أو نسخة عن نسخ؟ هل هي صادقة أو منحولة؟ هل نقد تصحيحي (الجرح والتعديل)؟ إعادة تركيب الأصل المختفى؟!

2- نقد المصدر :- الصفات الذاتية، طريقة المقابلة بشواهد أخرى، من الذي حرر الوثيقة؟ متى؟ أين؟ كيف؟ شكل الوثيقة؟ بأي سبل وصلت إلينا؟

2- نقد خارجي :-

1- نقد تفسير ما قاله الكاتب أو ما أراد قوله.

2- نقد القابلية للتصديق، سلامة الطوية، الطاقة والإتقان.. تأكيد القيمة للشاهد : هل أمكن للكاتب أن يضل؟ هل تمكن اضطراب من تضليلنا؟ هل هو شاهد مباشر "عياني" أو مستعيرا خبرة من شهود آخرين؟ إذا كانت الوثيقة مفقودة، فلا بد من البحث عن مصادر أخرى "**Guellenforschung**" ، بطريقة البحث البوليسي، والتي هي طريقة ناجعة للبحث التاريخي، فحص، نقد، تفسير، وفي نوع الدلالات

(آثار الخطى، بصمات) والشواهد مجموعة؛ لكن هذا التاريخ ذو نمط أواي غير محكم تقريبا ببساطة الحادث الذي يراد إعادة تركيبه.
يقول ياقوت الحموي :- المتصفح لكتاب أبصر بواضع الخلل من مبتدئ تأليفه "أمل الجاحظ فيقول :- "عقل المنشئ مشغول، وعقل المتصفح فارغ" وعلى هاتين العبارتين لياقوت الحموي، ولأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أختتم مداخلتي شاكرًا لكم حسن إصغائكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

